الصداقة العائلية

هى الواحة الخضراء فى صحراء الحياة

بقلم حضرة صاحب السعادة على جمال الدين باشا

حينما تنقضى شهور العسل وأعوامه الأولى من حياة العروسين ، وتخبو شعلة الحب المتوهج فى قلبى الشابين ، وتسكن فورة العاطفة الجارفة بسكون الغريزة ، وتصحو الأعين الحالمة على صوت التبعات والمشاغل .

وحينما تتراخى خطوات الزوجين فى صحراء الحياة والسنون تدلف بهما الى عالم من الوحشة والسكون ، وتفتر حماستهما المتأججة والحياة تبدو لهما بوجهها الشاحب الهزيل ، وتتساقط من حولهما أوراق العمر كما تتساقط أوراق الشجر فى نهاية الخريف .

حينئذ يتجه قلباهما فى هذه الصحراء إلى واحة ظليلة تعصمهما من الفاجرة ، وإلى نبع روى يحييهما من الظمأ . تلك الواحة التى يتجهان إليها هى الصداقة العائلية ، وهذا النبع الذى يرويهما هو ذكرى الأيام الأولى ، فإذا هما ضلا ظلال الواحة ، أو فقدا عذوبة النبع انقلبت حياتهما جحيما ، وعاشا للموت لا للحياة .

والصداقة العائلية لا ترتجل ارتجالا ، ولا تنشأ إنشاء ، ولا يقال لها كونى فتكون . ولكنها وليدة الأيام والسنين ، وثمرة الحب والمودة ، ونتاج التفاهم والتجاريب . وهى نبتة يتعهدها كلا الزوجين بالرعاية ، ويمدها بالماء والغذاء ، ويحفظها من عوادى الهجير ، ويدفئها من قر الزمهرير . وبغير هذا كله لا تنمو ولا تترعرع ، ولا تظلهما فى الصحراء يوم يتوقان للظلال .

بيد أن فتاة اليوم وفتاه ، لا يحذقان رعاية هذه النبتة الطيبة ، ولا يعرفان أصول الغرس والسقاية ، مالم يكونا بالأمس وهما طفلان ناشئان ، قد احتضنهما والدان خبيران بالغرس والسقى ، ودرجا فى كنف أسرة تظلها دوحة الصداقة ، ويرويها نبع المودة ، ويرفرف عليها طائر السعادة ، ويغمرها فيض الحنان .

وهذه هى الحلقة المفرغة ! فنحن فى حاجة إلى أسرة عرفت السعادة بالأمس، لنشئ أسرة سعيدة فى الغد . وهذا هو تضامن الأجيال الذى يقيد خطواتنا فى هذه المرحلة من تطورنا القومى، ويثقل من جهودنا للإصلاح الطلبق ، ويحتم علينا أداء الضريبة المتخلفة على الأجداد والآباء .

والتركة التى خلفها لنا آباؤنا تركة مثقلة ، والتى سنخلفها نحن لأبنائنا أشد ثقلا ، ولكن يجب ألا يحملنا هذا القول على اليأس ، بل يجب أن يحملنا على مضاعفة الجهد ، فما يحفز العزائم كفادح النتبعات .

لقد انقضى عهد كانت فيه الهوة عميقة بين الزوج والزوجة ، وبين الآباء والأبناء، حين كان الرجل هو سيد البيت المفرد ، وحاكمه الأعلى ، على طريقة السيادة الغاشمة ، ومنهج الحكم الاستبدادى ، فلم يكن إذ ذاك مفر من القطيعة الدائمة بين أفراد الأسرة إلا فى توافه الأمور وضرورات الحياة اليومية ، ولم يكن التفاهم مستطاعا بين الحاكم والمحكوم ، ثم زاد الجهل وفساد التقاليد هذه الحالة سوءا على سوء .

فلما انقضى ذلك العهد لم يصر المنزل إلى حكومة عادلة ونظام شورى ، ولكنه صار إلى تفكك وتشعث وإلى فوضى جامحة لا يعرف فى غمارها الرئيس ولا المرءوس ، ولا تفيء إلى وحدة جامعة ، أو دعامة قائمة : فالرجل فى النادى والمقهى بعد الديوان ، والمرأة فى الزيارات والحفلات إن كانت عصرية ، أو فى المطبخ ومرافق الدار إن كانت تعترف بوظيفة المرأة .

وقلما تجمع الوالدين والأبناء سهرة لطيفة ، أو نزهة خفيفة ، أو حديث للسمر ، أو رحلة للترويح ، وقلما يتبادلون التفكير ولو فى شؤونهم اليومية وحياتهم الواقعة . لا بل إن كثيرا من الآباء لا يرون أبناءهم إلا يوم الجمعة من كل الأسبوع !

وهذه وتلك بيئة لا تنمو فيها صداقة ، ولا تترعرع فيها مودة ، ولا ينبت فى تربتها تفاهم ، ولا يعيش فى جوها ائتلاف . وفيها تبذر كل البذور السيئة التى تسمم جو العائلة وجو المجتمع ، وتجعلنا نعيش كل حياتنا أفرادا مبعثرين متناكرين ، لا شعبا مؤتلفا متفاهما .

أجل هنا فى هذه البيئة المنزلية تنمو سيئات المجتمع كلها ، فالأطفال المهملون فى رعاية الخدم أو صحبة أترابهم فى الطريق ، هم أولئك الشبان المستهترون ، والموظفون المقصرون ، والأفراد الأثرون ، الذين لا يعرفون للواجب حرمة ، ولا للمجتمع حقا ، ولا للوطن مصلحة .

والأطفال الذين يشهدون كل ليلة معركة الآباء والأمهات ، هم أولئك الشبان وارجال المتنازعون فى الأحزاب ، المتنابزون بالألقاب ، الذين يحسبون النضال السياسى خصومات وشتائم ، والتنافس العملى مكايد ودسائس ، ولا يثوبون يوما ما إلى عفو متسامح ، أو عطف كريم .

جيلا واعيا بحاضرهم آباء المستقبل وأمهاته ، وبنات الأسر الجديدة التى تريدها غير الأسر القديمة . ولنطمئن لنشئ لنا جيلا راقيا ، نفاخر به الأمم فى الحياة الدنيا .

بعد الجهاد حن صانعون ؟

الرجاء الطموح هو الذى يعصمنا من اليأس المقيم ، والمثل الصحيح هو الذى ينير لنا الطريق القويم . ويجب أن نعتصم بالرجاء ، وأن نتعلق بالمثل ، وأن نستنهض فى نفوسنا كل عزم على الحياة السعيدة ، وكل رغبة فى المستقبل الكريم ، وكل حب لذواتنا و بلادنا ، ونستعين بهذه كله على خلق الصداقة المدنية فى جو الأسرة المصرية .

فينا من عاشوا فى البلاد الأوربية بضع سنين ، ولمسوا السعادة المنزلية التى ترفرف على البيوت فى تلك البلاد ، وعرفوا الوسائل التى يتخذونها هناك لتحقيق هذه السعادة . وفينا من الحكومة فى مصر بالأسر الافرنجية ، وغبطوها على الحياة الهنيئة التى تحياها ، وخبروا على مهل أسباب هذه الهناءة . وفينا من سعدوا فى بيوتهم بالفعل قصدا أو مصادفة . وعنوا بأن يتحاوا عن سببها . نالوا من هذا الخير . وفينا من قرءوا عن بيوت ناعمة وعلموا كيف تحققت لتنعمها هذا النعيم .

فعلى هؤلاء جميعا واجب فى أعناقهم ، لايحلهم منه إلا أن يكشفوا ماعلموا ، وينصحوا بما عرفوا ، ويدعوا ثم يدعوا دون ملل ولاسآمة ، عسى أن تؤثر دعوتهم ، وتنفع أمثالهم ، وتجدى مواعظهم ، وتنير الطريق للهائمين فى طلب السعادة العائلية وهى منهم فى متناول اليد ولكنهم لايعلمون !

وفينا آباء وأمهات وأزواج وزوجات يقرءون هذه الكلمة ، ولمن حق أنفسهم عليهم وحق أعليهم وأولادهم أن يبذلوا جهودهم فى تحقيق ماندعو إليه ، ومزاولة أسباب الصداقة العائلية فى الابتسامة الجذابة والكلمة العذبة والمودة الخالصة والتسامح الكريم ، وفى محاولة التقارب والتفاهم لاجتماع و لحديث والتودد ولو تطبعا حتى يصير طبيعة ، وتصنعا حتى يمسى سجية . وهم رابحون أولا وآخر .

وفصة الموقد فى البيت الأوروبى (Foyer) ، ينبغى أن تعاد وتكرر فى منازلنا ، وليس من الضرورى أن يكون موقدا للنار ، ولكن ليكن كما يناسب جونا وبيئتنا ، ويتسق مع عاداتنا وتقاليدنا ، وينبع من طبعنا وأخلاقنا .

وفصل الشتاء وقطار الحرب تمدنا بفرصة سانحة للاجتماع فى المنازل ، هربا من الظلام فى الشوارع والمقاهى ، فلنتهز فرصة إيوائنا إلى منازلنا مبكرين ، لنخلق حلقات السمر من زوجاتنا وأبنائنا وبناتنا ، ولنوسع مداركهم بمعلوماتنا ، ونمودهم المناقشة الحرة والأحاديث الاجتماعية ، ولنسرب بيننا و بينهم ، ونمزج نفوسنا بنفوسهم ، ونقطع هذا الجو الموحش الذى كان يسودنا و يسودهم .

وكثيرون أولئك الذين يعتذرون عن هذا بأن الفوارق الثقافية والعقلية فى المنزل تحول دون هذه الحلقات وتمنع من هذه المجاورات ، وهؤلاء أجد من تجربتى الخاصة ما أرد به عليهم ، وأستبيح لنفسى أن أتحدث عن شخصى ودارى :

فأنا أعيش فى شبه عزلة من الناس لا أحفل إلا بالأصدقاء الأوفياء الذين أحبونى لشخصى لا لمناصبى ، وهم قليلون . ولكن أولادى وزوجاتهم ، وبناتى وأزواجهن يزورنى كل ليلة ويقضون السهرة معى . ولقد كانت الفوارق كبيرة بين ثقافاتنا المختلفة المتباينة ، وبين أعمارنا وتجاربنا فى الحياة . ولكن حلقات السمر الليلية ، واستدكار نعمة الله علينا ، والاستماع إلى المذياع والتعليق على الحوادث والأخبار وتصحيح المطالعات والأفكار ذهبت بهذه الفوارق جميعا ، ورفعت المجموعة كلها الى المستوى الذى أكتب به هذا المقال ، وأضفت على الأسرة لونا من ألوان الصداقة والتجاوب يمزج وجوده بين الأصدقاء ، وجعلت الساعات التى أقضيها بالمنزل نوعا من المتاع يغنينى عن مخالطة أناس لم يريدوا أن يعرفوا فى إلا الوزير السابق ، ولا يريدون أن يعرفوا إلا الوزير الذى ترجى عودته ، وعن غشيان مجالس لا يتكلم فيها الانسان إلا بحذر ، ولا يسمع إلا أحاديث ومجادلات لاخير فيها له ولا لأحد .

ولن يعسر على أى إنسان أن يسلك هذا الطريق حين تصح عزيمته ، وحين يبغى لنفسه سعادة عاجلة وهناءة آجلة ، وإلا كان ظالما لنفسه وأهله ، عاقا لوطنه وشعبه ، وإن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

على جمال الدين

كان المسيو بانليفيه من رؤساء حكومة فرنسا السابقين يجتاز البحر الأبيض المتوسط على متن طائرة . وفيما هو يتأمل ما بين السماء والماء ، نظر إلى قائد الطائرة وسأله : " ترى ماذا يحدث لو توقف المحرك وسقطت بنا الطائرة فى البحر ؟ " فالتفت اليه الطيار وهو يبتسم ابتسامة خفيفة وقال : " تحدث أزمة وزارية فى فرنسا يا سيدى الرئيس "